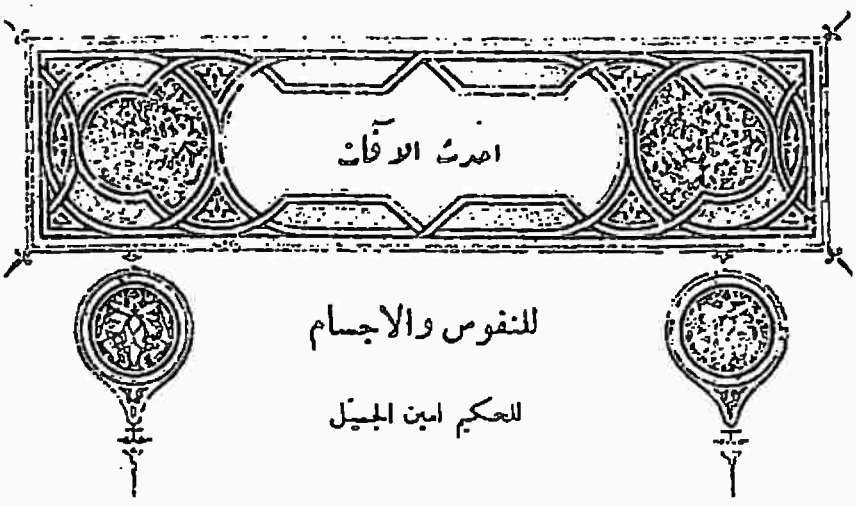

هي امس كانت اشجار الليمون ، بخضرتها الدائمة ونضارة ازهارها مع عطر ازهارها ورونق ثمارها ، احلى حلية لجناتنا واجمل زينة لارضنا. ومن نحو عشر سنين اخذت تلك الزينة بالتلف وتحوّلت تلك الاغراس الباسقة الى عيدان يابسة ، والثمار الذهبيّة الى كريّات مصرصرة قذرة أولى بالمزابل مما هي بالموائد.

لان حشرة[1] دقيقة ذميمة حلّت فيها وفتكت بها فتكاً.

وليسمح القارئ ان نسأله رأيه بأناس قُدّر انهم عرفوا منذ البدء هذه الحشرة وادركوا اضرارها وسبل اتقائها ، ولم يُنذروا بالخطر ولم يفعلوا شيئاً لتلافي الضرر ؟..

ان هذه المقدّمة ما هي الا صورة لما نحن عليه من أخطار ادبيّة وأخلاقية ، وأضرار ماديّة ، واوبئة حقيقيـة ، تُفني النفوس والاجسام على السواء ، ولما يجب من سهر وحيطة.

عاد الينا في القرن الماضي من اوربـة كما جاءنا من اميركة الكثير من علم اساتذتهما وفضائل المرسَلين ونشاط التجار وصناعة المنال. وليتهما اقتصرتا على هذه الواردات وعلى الآتين بها ، ولم يختلط الشوك بالورد ويتسرّب الذئب الى حظيرة الغنم.

---

١) حشرة تُسمّى بالافرنسيّة : *Cochenille noire de l'oranger*

الخلاعة ، الدعارة

ليس شيء يكاد يجدونا الى الاسف على سرعة اضمحلال الحجابات والشعريات والمبالغة في التصوُّن الا تهتُّك اليوم والتبذُّل المتفاقم كلّ يوم.

كان زواج الاجداد والآباء في عزّ الشباب ؛ كانت العقليّة ان البنين اكبرُ نِعَم الله وقوّةُ الأُسرة والوطن ، وان اعظم قيمة للارقام ما جاء يدلُّ على عدد الاولاد . فلم تكن البلايا النفسيّة ولا الامراض البدنيّة (الزُّهريّة) الفاتكة بها العيادات والمآوي والمستشفيات ، اذ لم تكن اتتْ من وراء البحار بناتُ الغناء والبغاء والرقص والهوى ، وفُتحت بيوت الفجور وسائر ما هو من الفساد والافساد . استشارتني بالامس احدى هذه الفتيات فعجبتُ كيف على غضاضة شبابها وحداثة سنّها ، انهكتها العلّة بل العلَل . فقلتُ لها : وما هذه المعيشة وما هذا التهتُّك والمقدار الذي تشربينه من المُسكر ؟ فأجابت : معاشي ! فسألتها وكيف ذلك ؟ فزادت : ان أُجرتي على قدْر ما استهوي من الحفّار واستغوي من الزبائن واسقي من الاقداح .

اذًا بنسبة ما تصبُّ من السموم تُنقَد من الفلوس . . . !

وهل من حاجة الى التذكير ان بالخمر الدعارة ، وبالدعارة علَل الشبيبة : من الشلَل ، الى العمى ، الى الجنون ، الى الآلام المبرّحة ، والف بليّة ، الى إسقاط الاجنّة ، والبلاهة في السلالة وعاهات البنين وسقام الشيخوخة ، وضروب الاذى في جسم او عقل المُبتلى .

المراهنات ، القمار

اجدادُنا كانوا من اجوَد الفرسان ، وخيلهم شهرتُها بين الخيول . رأيناهم لخمسين سنةً خلَتْ يتبارون في الميدان مباراةً كلّها حماسة وعياقة وكياسة ، لا يطمحون الا الى إعجاب الجماهير المتأنّية مباهين بجمال خيلهم وإتقانهم لضرب الجريد . وكانت السهرات تُقضى بالتحدُّث بالسياسة (وكل لبناني « سياسيّ ») وأمور الاملاك والزراعة ونوادر او قصص الاقدمين ولطائف الاسبقين ، وتُصرَف

اوقات الفراغ في الرياضة من «تمرينات» وحكم وقنز وصيد او مباراة بالرجل، غير مفكرين بربح غير الفوز المضوي، ولم تكن قط مراهنات درهمية. ندرت بينهم الالعاب الجلوسية التي نرذلها باسم الصحة الرذل كله لما يأتي من الاسباب. اما الميسر، وبالدارج «القمار»، فجاء على يد بعض الميال البيروتية، ففشا كوباء في السيدات والرجال.

والمصيبة ان طُرُق الشر، مع ميلنا الفطري اليه، تجدها ابدًا رحبة غرارة فيؤمها الكثيرون. والحكومة التي من واجبها، فضلًا عن عهودها لجمعية الأمم، احترام الاديان، لم تحفل قط بتحريم القرآن ولا يحرم بطرك او مطران، وكأنها قد ذهلت كلها عما بهذا التحظير من حكمة واقتصاد بالمال والزمان ورفاهية وعافية. وربما ظلّت «معالي» الوزارة تتابع الجوائز لمراهنات الخيل مع انها، كصيد الحمام، الميسر بعينه! وهي، التي تلكّأت عن الإنفاق على مجمعها العلمي الوحيد فأقفلته[1] وبالخصوص عن أعمال الري — وهي قبل كل شيء — والتحريج ومناهضة البعوض والامراض وسائر ضروريات الصحة والعمران، لم تبخل بهذه الجوائز. وهل ننسى ان المجلس النيابي وافق على كل هذه الترائب. والحكومة تنظر ولا تبصر ان هذا الميسر الجديد (المرمح وصيد الحمام) «رجسٌ من عمل الشيطان»، يذهب براحة الأسر مع أجرة المنزل وخبز البنين وصدق المستخدَمين وأمانة الموظفين. وكثيرًا ما نقرأ في الجرائد كيف ادّى الى اليأس والانتحار.

أليس كل ذلك الضلال بعينه، اذ اية فائدة لجواد يسرع عن ندّه ببعض خطوات او يطيلها بزيادة بعض سنتيمترات ونحن في عصر السيارات والطيارات؟ بحياتكم اي ربح للأمة من البراعة في قتل حمامة؟ ان الربح في كل المراهنات — وأخطره ما يقع في الابتداء — انما هو الخسارة بعينها وهو البطالة بذاتها: والبطالة أمّ الرذيلة.

---

[1] تأمّل ان المواخير الشاغلة قلب العاصمة والفاتحة ابوابها على السكة مباشرةً لم يُقفل منها واحد. بلدية بيروت تصبّ المال في لجّة البحر بدون لزوم، كما بدون حساب، لما سمّته «الكورنيش» ولم تكترث لنقل المواخير لجّة البلايا ولم تتفق لذلك بارةً.

الاسراف ، البذخ

وُلد الانسان ، وبالخصوص الشرقي ، طنّاحاً الى الظهور ، مُوجِدًا لنفسه احتياجات هي التوافه بالذات ان لم تكن المؤذيات ، منهـا التبغ مثلًا ، حتى ركوب السيارات للكثير من الناس في اكثر الاوقات . او ما هو ذلك بعينه ركوب «الخواجا جوزف» الذي اذا همّ «لقتل وقته» وقصد الى نهر الكلب للنزهة ، ركب سيارةً فخمةً وسار بسرعة هائلة تجعلك تظنه طبيباً يجدُّ لإسعاف جريح ينشبُ دمه ، آنفاً من ركوب عربةٍ تجرُّها خيلُ بلاده الجميلة المقتدية من شعير ارضه ، عربةٍ شغلتها يدُ ابناء قومه وتمكنه من ان يتبتّع ملياً بمشاهد بلاده الفتّانة ومناظرها الفريدة .

ولم تكن لتطرق هذا الباب لولا ما ينجم عن التبذير من هموم وارتباكات تُميتُ الوجدان والامل والرفاهية فالعافية : بَعُدتْ سنّ الزواج او احجموا عنه ؛ نظروا الى الطفل في البيت كما الى غولٍ او حيّة ، فلجأوا لتلافيه الى طرائق ملتوس وأرتان التي انزلت عليه غضب الله . مع ان الولد اشرف ما في نظر السماء ، واثمن ما في الارض .

زار يوماً دير مجرصاف (بكفيا) سيّدان كبيران : المطران بطرس البستاني والمطران يوسف الدبس وتهافت الناس لتحيتهما ؛ ودار الحديث على المهاجرة الى اميركة وكانت في اوائل عهدها . ففسّرها الحبر البستاني بتزايد السكّان فضيق المكان فردّ بعض السامعين بان بلاداً لا تضيق بظرف عشر سنين على قوم يقطنونها منذ الخليقة . وهي ان ضاقت فلاتساع ضروب الإنفاق والبذخ والانصراف الى الفضوليّات . وهل ضاقت ارضنا عن قبول المهاجرين من ارمن وغيرهم على الرحب والسعة وفي اصعب الايام واحرج الاحوال ؟

ومنتهى المصيبة اننا في كل هذا الاسراف لا ننظر الا الى الذات والملذات ، ولا نفكر بما حقّ للرحمة او واجب الخير العامّ من كرم وإنفاق .

المخدرات ، المسكرات

من افيون ومورفين وحشيش وكوكايين. وشيخها وابدًا فتاها الكحول من وسكي وكونياك وقس عليهما. جميع هذه حيّاتٌ بنات افاعي يجب خنقها في مهدها. فهي متى تأصلت في بلد او في جسم استحال استئصالها: المرّةُ تأتي بالعادة والعادة تصبح ملكةً تملك الحواسّ والعواطف. والخبرة على ذلك اقوى برهان. ومن الواجب في هذا المقام التنويه بفضل جمعية الأمم . وهي ، ما عدا حربها للحروب ، تناهضُ الآنَ الشرور المعنويّة كما الاوباء البدنيّة. فتكافح الاتجار بالأعراض اي ما سنوه الرقيق الابيض، والمخدّرات وما هو من نحو هذه الآفات.

* * *

ان ما تقدّم من شرورٍ واخطار يقضي على الجميع بعمل سريع يقوم بـه كلٌّ في نطاقه ما اطاق.

قـد استشفَّ القارئُ اللبيب بدون ريبٍ في اثنـاء هذه اللمحة خطّة المقاومة. فبقي ان نخصّها بشيء من العناية والإسهاب الجديرة بهما.

غنيٌّ عن البيان ان اساس كلّ صلاح وإصلاح هو في البيت والمدرسة . في اصيلة تنشأ المبادئُ وترسخ النيّات ، وفي المدرسة يتمُّ صرحُ بناء التربية العظيم. فلا يبقى الا الاحتفاظ والازدياد بما وراء المدارس من عشرات طيّبة وجمعيّات صالحة وأنديةِ خيرٍ وأدَبٍ وامثالٍ صالحة. والمثل قوة عجيبة بقدْر ما هي ذات لطف ورفق. ولا بدَّ لنا من ذكرٍ خاصّ لامر خطير الشأن وهو أندية الرياضة البدنيّة. فما اجمل ان يتبارى شبانُنا بعزمٍ وانتظامٍ وكياسةٍ في ميدان «الفوت بول» (كرة القدم)، وافضل منه «التنس» ، ومن حولهم صفوفٌ كثيفةٌ من اهل واصدقاء ومتفرّجين يصفّقون ويهتفون، غير ناظرين الى ربح محرَّم دنيء، كما في مرمح او مصاد للدراهم اي للحمام! ما افيد ان يتمرّنوا منذ الصغَر على الألعاب ويكتتبوا في اجواق «السكوت» ، الكشافة ، الواجب تنشيطها وتعميمها!

ان التوفّر على تطهير المحيط والجوّ الذي فيه نعيش لمن اقدس الواجبات. فانه للآداب غازات خانقة ووسط فاسد سامّ. ومن العمل ما لا يحتمل ادنى إمهال او إهمال كتطهير قلب العاصمة. وهل يجوز ان يبقى قلب مدينة الكليات والجامعات بيئة مواخير وخمامير، وان يُشاد في كل زاوية «مقمرة»، وان يصبح نهار الاحد، لا يوم الرب والاستراحة، بل يوم المراهنة والمجازفة؟

ما فكرت بهذا الموضوع ولا كتبتُ فيه سطرًا حتى تجلّت لي حكمة رائعة للصديق الكريم امير الشعر وفيلسوفه شوقي:

وانما الأمَمُ الاخلاقُ ما بقيتْ فان همُ ذهبتْ اخلاقُهم، ذهبوا

فلم يبقَ قط ريبٌ الآن في نقص المواليد عن الوفيات في فريق كبير من الناس والسير الى الانقراض؛ ولما كان خيرُ البرّ عاجله، وافيدُه اعمّه، وانجعُ المعالجة اعجلها نعتبر هذا الاصلاح عملًا حكومياً اكثر منه فرديًا.

ان الاصلاح عن طريق الصيلة والمدرسة لعملٌ لازمٌ محتوم شريف خطير، ولكنه يستوجب اجيالًا والوفًا بألوف من العاملين؛ ولكنه اذا تولّاه حاكم نشيط غيور وحكومةٌ حكيمةٌ اصبح حاصلًا في الحال.

بدقيقةٍ أُوقفَ تيّار المسكرات في كل الولايات المتحدة وآفة الحشيش الفاشية في القطر المصري؛ وبغطّة قلم قضى موسوليني على الكثير من المحرّمات والمنكرات. هذا ما ينبغي لحكومتنا ان تحققه حالًا وبدون تردُّد كما طلبتُ بالحاح، وان على غير جدوى الى الان، في لجنة الاصطياف والاقتصاد، عن القمار والمراهنات وسائر الموبقات، اي قبل ان تتأصل فيستحيل اقتلاعها.

فان يفعل اولياء امرنا فهم اصحاب الفضل العظيم والاجر العميم؛ وان لم يفعلوا فهم — امام التأريخ، امام الله الديّان — الجناة على امّتهم ووطنهم لا سواهم، اجل لا سواهم!